

عام 2001 (فلسطين)

مدينة المجدل المحتلة

في ذلك الفصل الادجن فصل الخريف الذي كما نحسبه انه يوحي بالحياة فقد أنعد مثله مثل باقي الفصول، وكل تلك الأشجار التي انهارت أوراقها على الأرض بعد كونها اشجارا نضرة وبدأت ان تنشر أكسجيناً ملوثاً من دماء الشهداء والتي كانت تحدي كل تلك الرياح المتجه اليها في مهابة وزهو إجتت من جذورها ولم تنهي بحب الطبيعة وإهتمام البشر، وتلك الزهور بألوانها وأصنافها الجميلة التي كانت تشد الجميع لتصويرها لم تُسقي وذبلت وأصبحت توحى لمن هو قادم بالهروب. أسير في تلك القرية المتهاككة المكظمة بمحطام المباني التي صمد بعضاً منها لشدتها وكل تلك الشوارع المهدمة، اسمع صوت القنابل المتفجرة تنهال فوقي، اسير حتى ابحت عن ذرة حياة في ذلك المكان.

انا ذاك الطفل الذي ولد في حرب لم تنتهي بعد، وددت انا أحظي فقط بطفولة طفلاً مثيراً للفوضى بشكلٍ دائم، ومزعج، أساهم في اعمال المنزل، أقصى امنياته اللهو في الشارع المقابل حتى ان تسخ ملابسني واذهب الي البيت حتى أتلقني درساً من امي. لم أكن طفلاً ابداً، خلقت طفلاً مرفق عليه دلالة عدم النعيم والموت وفقد الحبيب، أصبحت قلوبنا يابسه لا

تستطع ان تعيش . تعيش قلوبنا بهواء ملوث بدماء كل فلسطيني، أصبحت أعيادنا بلوناً اخر
بلون الدم والخراب ودمار . ولكن نعيش حتى يأذن الله ان نموت وتنصرف تلك الروح المليئة
بالجروح، كم وددت ان التقي بأمي وابي في تلك الجنة التي احلم بها، إذا لم تري ذلك من قبل ؛
إذا اهلا بك في فلسطين الحبيبة .

مع كل خطوة على اقدمي على تلك الأرض أستحضر كل تفاصيل حياتي، أتذكر ليلة موت
امي، أتذكر تلك الليلة الياسة وقصف البيت وكأنها الليلة الماضية، لم تكن جريمنا سوي أننا
اجتمعنا على الطعام، قُصف البيت ولم ينجو الا الطفل التعيس انا، كان الدخان والغبار
استحوذ على المدينة بالكامل مما حجب ضوء الشمس القادم حتى أصبحنا لا ندرك بين ليله
وضحاها . ترامي كل منا بعيداً بدأت الاسقف بالانهيار ، سقطت علي الأرض كجثة
متجمدة منذ قرون ، رأيت العالم يُعم بالبياض ظننت اني في عداد الموتى ، جلست قليلا
حتي ادركت اني علي قيد الحياة أستعيد قواي حتي أنهض ، بدأت قطرات الدماء
بالسقوط علي وجهي حتي اكتشفت النزيف الحاد الذي في راسي ، نهضت ولكن لم أكن
مترنا ، جسمي ثقيلًا ، مشوشا ، كان الهواء مشبع برائحة الموتى ، الجميع يصرخ لم يهمني
ذلك ، كل ما يهمني هو البحث عن امي ، كان نظري مضطربا لم استطيع النظر، لم اجلس
كثيراً حتي بدأت الأشياء بالوضوح اري جثة تناشرت أطرافها تحت ركام السقف وتمنع

ذلك الشخص من التنفس . اذهب مسرعاً اتفحصها حتي اجدها امي ملقاه علي الأرض،
تنهمر الدماء من رأسها بشدة امسك رأسها واضعها علي يدي تمنياً مني ليتوقف النزيف،
بدأت بتلفظ انفساها الأخيرة لم اتخيل المنظر ، اصرخ "امي امي امي" انهض وانظر الي
السماء "يا ملك الموت ارجوك لا تأخذها ارجوك يا الله اعطنا فرصة اخري اتوسل اليك أيها
ملك الموت ارجوك ، بدأت عينايا بسكب الدموع وكأنها شلال لا يريد التوقف واصرخ
"امي" حتي بدأت برفع إصبع السبابة قائلة " اشهد ان لا اله الا الله "ليأخذها ملك الموت
الي خالقها بدون معاناة من شدة سكرات الموت . بدأ العالم في عيني يبدو كاظلام الداكن لا
اري شيئاً منه الا الجثث مصفوفة في كل مكان حينها ايقنت اني افقدت أكبر عشق في
هذا العالم ، أصبحت هيكلاً بلا روح داعياً ان ألحق امي في اقرب وقت ، من ذلك الوقت
ابحث عن مأوي ليتسع لحزني ووحديتي .

لم يهدئ غلياني الداخلي للجنود وبدأت في الانضمام الي التظاهرات ضدهم، نستهدفهم
بالحجارة يقذفونا بالأسلحة ليقتلونا، لا اخن انهم بشر فكل منهم يقتلنا وكأننا حيوانات وحتى
الحيوانات توضع في محميات لمأوها، كم الانسان مؤذي؟ ومن ثم أصبحت شخصاً مهماً في
صنع المولوتوف اصنع ذلك للشباب المقاومة، بدأت القوات الإسرائيلية بالخوف حينها، حتما
اريد القانون انا يعاقبهم ولكن هنا في فلسطين الامر اسوء من ذلك فقط أصبحت للسياسية

وجهاً آخر تجعل القاتل بطلاً في نظر الجميع والمقتول ظالماً . اصنع مواد المولوتوف بكميات كبيرة واوزعها على افراد في البلدة ويتم توزيعها لكل مجموعات شباب المقاومة في رام الله والضفة الغربية وبعض المناطق الأخرى، بدأت اعداد جرحي القوات الاسرائيلية بالتزايد بالرغم من صغر سني إلا واني أصبحت بطلا في صنع المولوتوف .

وبينما اسير الان لكي أوزع كمية المواد الجديدة، سمعت اقدام متعجله قادمة في اتجاهي حتى رأيت عاصم ذلك الموزع الذي يأخذ مني كل مرة، احسست لحظتها بالخوف لا اعلم لماذا؟ اقترب مني ولكن كان يتنفس بسرعة، مرتجف، وجه مُتعرِّق، يشاور بيده لليمين وكأنه يوحى لي بالهروب حتي سمعت ذلك الصوت، صوت عياراً نارياً يخترق رأس عاصم لم ادرك ماذا جرى؟. لم يتضح شيئاً حتى ظهر ذلك الجندي الإسرائيلي حاملاً سلاحاً بيده، رجلاً طويل القامة، ابيض البشرة ذات الشحومات الاذن الطويلة، استحوذ النمش على وجهه بالكامل، لم اجلس طويلاً حتى اتضحت ملامحه وعلمت انه دانيال يوثان أحد الجنود الجائزين، اتراجع للوراء قليلاً حتي أتى جندي اخر من خلفي، نعم تم محاصرتي بنجاح. امسكني دانيال وبدا بضربي على وجهي مرة تلو الاخر حتى بدأت انفي ان تنزف .

جاء صديقه قائلاً:

-القيادة تريده حياً

لم يستجب له دانيال حتى رفع ذلك السلاح وبفوهته مباشرة في رأسي، بدأت يده بالاهتزاز
ووجه الأبيض بالتعرق.

-دانيال القيادة تريده حياً بسبب الاعلام العالمي

لم يستجب دانيال وبدا بفرز ذلك السلاح تأكيداً لقتلي.

-دانيال انزل السلاح

نظر الي دانيال قائلاً:

قل شيئاً قبل موتك

يصرخ صديقه:

-دانيال انزل سلاحك

نظرت اليه مبتسماً ولكن بدأت دموعي بالسقوط ولوهله احسست بالخوف، نعم إنها

طبيعتي كالطفل لم يتعد الخمس عشرة سنة من عمره وقلت له:

-لم يعد سلاحكم يخيفنا

-دانيال ماذا فعلت؟ لقد قتله.

نظر اليه دانيال قائلاً:

-تم قتله لأنه كان يحمل سلاحاً نارياً وأطلقه على بعض من عناصر الشرطة

-ولكن ليس هناك قتلي !

-من قال ذلك ؟

اخرج سلاحا اخر وأطلق رصاصة في رأس صديقه حتى يتم كل شي كما يجب، ليمسك
بجهازه اللاسلكي قائلاً:

-تم الهجوم علي صديقي وتم قتله من قبل الطفل الذي كان يستحوذ على مسدسا نارياً،
اريد الإسعاف الان .

عند تلفت دانيال لحت عينه ورقة في جيب الطفل، وضع يده ليخرج ورقة تحمل عنوان
"في أعين طفل فلسطيني"

" لقد احسست ان يوم الشهادة قريب لذلك كتبت رسالة تحمل ما تبقي مني من قوة، إذا تم فتح الرسالة
اعلم انني قد مت لان. لا اعلم الي متي ستظل قضيتنا مطلع رأي وليس إجراء، اما عن إسرائيل ذلك
الفيروس اللعين الذي ينشر الرعب والخوف، ويهدد بالموت والخراب لينتشر ذلك الفيروس في الوطن العربي
ليبدد شمله ويقتل أبناء الوطن المسلم بعضهم البعض، كيف سنواجه الخالق إذن ؟ سمعت بضعة كلام ان
من مخططات إسرائيل في السنوات القادمة ان يتم تحويل القدس الي عاصمة إسرائيل، اعلم انهم
سيفعلون ذلك ولكن لست خائفا الا ان يتم تضليل الأجيال القادمة بقضيتنا حتى تمحي فلسطين كأنها لم

تكن، ولكن اعلم ان الوطن قادم وستعيش الأطفال كالأطفال وستعيش الأجيال القادمة في أمان ولكن
يجب ان نعلم إنها مجرد أحلام في أعين طفل فلسطيني".

"سلامٌ لأرضٍ خُلقت للسلام وما رأت يوماً سلاماً"

محمود درويش